جنة البستان تورق في المقهى الثقافي بلندن

أنسان وشاعر يشبه قصائده يستنهض ذاكرة محبيه

عبد جعفر

في امسية مهيبة يوم 1-25 لم يشهدها المقهى الثقافي في لندن من قبل، اجتمع العديد من محبي الشاعر الانسان مهدي محمد علي الذي رحل عنا في30 تشرين الاول (نوفمبر) العام الماضي مستذكرين قصائده ، ومواقفه ، وعشقه لبصرته موطن غرامه وولهه الاول الذي لم يبارحه عقود من الغربة. الرحيل قد طوى في الغربة- كنوع من القتل- جسد الشاعر ولكن لم تطو روحه المتألقة في بصرته جنة البستان ، ولا رحيله عام 1978، ولا سر تفاحة عشقه و لا عزفه المنفرد، وكأن مهدي لم يزل بل مازال معنا لم يبرح بصرة حلب كما يحلو له ان يسميها.

فالطريق الى جنة البستان كما يؤكد مقدم الحفل الشاعر فلاح هاشم في تذكره الفقيد نابع من
(كل انسان في حلمه جنة يسعى اليها ...
قد يلامس بعضا من نسائمها ...
أو يرى خيطا من ملامحها ...
والقليلون القليلون أولئك الذين شارفوا تخومها .
المتصوفة وحدهم قد وعوا أن جنتهم ليست مكانا جغرافيا يقع بعد الزمكان.. وانما هي الآن وهنا في فسحة لامتناهية من النشوة التي تتحقق حال ذوبان الأنا بالكل في حالة من التماهي لن يصل اليها الأنسان الا عبر مغامرة روحية هي أخطر مغامرات الوجود وأعظمها على الأطلاق.

وحين يصل المريد الى جنته ماذا يريد بعد ذلك؟
هل ثمة مكان آخر يغريه ويشده اليه ؟
انه في غنى عن الأماكن الأخرى كلها ولكنه لومنح تلك الأماكن دفعة واحدة فانها لن تغنيه عن جنته.
وما حدث مع مهدي محمد علي .. الأنسان والشاعر .. هو فطام قسري من ثدي مدينته – جنته البصرة ... التي رمي خارجها بغتة وأحكمت أسوارها دونه .. فهام في ما تبقى من الأرض خارج الجنة.
شيء واحد بقي يرافقه حيثما حل وارتحل : ظلالها.
تلك الظلال التي لم يأنس لسواها. فكل شجرة هي البصرة.. وكل نبع هو شط العرب .. وكل ظريف يشيع البهجة في القلوب هو تومان.
والبصرة هذه حاضرة عجيبة .. لا يخرج الريف فيها من المدينة ولا تغادر المدينة ريفها
فمهدي ... وكل مهدي الى ضفافها انما هو فلاح مدني .. سوف يبقى متلفعا بسعفات نخيلها مرتشفا عسل تمرها .. غارقا في ضفائر انهارها يستخرج اسماكا و يوزعها على العابرين .. حميما وأنيقا في بعده الأنساني الأرحب .. ويبقى أجمل ما فيه تأمله الوديع ...
وزهده بالأضواء صادقة كانت أو مزيفة.
لمهدي محمد علي طبع الياسمينة البصرية .. غاية متعتها أن ترقص تحت الشمس وأن يضوع عطرها في الجو .. مثلها مثل غيمة محملة بالماء لا يمكنها الا أن تمطر .. سواء التفت اليها أحد أم يلتفت .. هذا لا يشكل فرقا .. لأنها تعرف حقيقتها .. تعرف أنها ليست كينونة مرسومة الملامح كاملة منذ بدايتها حتى تغيب .. بل هي صيرورة تتحق كل لحظة عبر أداء دورها فلا تكف عن الرقص و تعطير الفضاء.
ولمهدي محمد علي كنز تتناسل مفرداته ويتضاعف لمعانها مع الأيام والأحلام ليؤثث بها ثنائيات سماواته الواسعة بين البصرة ودمشق والبصرة – حلب .
لكن هذا السخاء كله لم يخجل شحة الواقع المرير الذي أمعن بالمجافاة متلونة ليلا بعد ليل وخيبة بعد خيبة .. حتى صارت البصرة تنأى وتنأى وتنأى,,

واذا أطلت عين على المشهد من أعلى .. فسوف ترى شاعرا يسعى حثيثا خلف بوصلة توهمه بأن المسار لا شك نافذ الى ما تبقى من ساحة أم البروم أو أطلال ساعة سورين منعطفا على سوق الهنود في العشار. فتتواثب نبضات القلب و يتعالى ايقاع الحلم .. و يوشك .. يوشك .. يوشك .. كأنه .. لكن..

ما ان يضم جفنيه بكفيه ويفتحهما حتى يرى الطريق يضاعف قامته .. مجددا تضاريسه الوعرة

مثلما تجدد الثعابين جلودها .. وعلى الجانبين جوقات المشعوذين والأفاقين وقطاع الطرق والمهرجين ... يقرعون الطبول ذاتها .. تدق تدق تدق ... حتى يصك الصخب اذنيه ... فلا يملك الا أن يغوص في أعماقه ليصغي الى ترنيمته الوديعة ... ويرتوي من ماء الشعر لكي يوازن أملاح الروح والجسد لألا ينبجسا في هذا المهرجان اللئيم.

فيا مهدي محمد علي .. طغى اللؤم كثيرا وأمعن في الصخب .. وانبجست العروق ... لكن الدروب لما تزل سالكة..

ولم يزل بعدك السالكون.)

شاعر يطرق باب شاعر آخر

الشاعر عواد ناصر فهو يطرق باب مهدي يوهم ويتوهم ان يديه لا تصل .. ويحاول ويداه لا تصل،!

ويمضي عواد قائلا (نضال مريضة . اعرف هذا ، وهي لا تستطيع النهوض من سريرها الا بمشقة ان تنهض جثة منقوعة بالأنسولين. امضيت حياتك تعمل ممرضا مخلصا، بلا ضجر ولا شكوى، لتسعف زوجتك نضال، طيلة اكثر من ربع قرن . ان هذا وحده يجعلك اكثر الناس نبلا. كم اغبطك على هذا النبل النادر.)

ويستذكر عواد (سألتك، حينها : كيف تعيش؟ كيف تدفع ايجار هذه الشقة ؟ قبل ان اسّألك عن الشعر. الشعر يكتب في اي مكان، لكن الشاعر لا يقيم في أي مكان.

قلت لي: الشقة شقة صديق أّعارني اياها، والعيشة دابرة : اكتب هنا وهناك.

ويتوجع عواد ناصر لان مهدي لم يفتح له الباب ويتركه وحيدا في عري الليل البارد ، ويسأله (متوجعا لماذا فعلت بي هذا، ايها الجواد النحيف الاصيل. الجواد الخفيف ، انا زعلان حقا ، ولان اكلمك بقية حياتي). ويردد عواد قصيد مهدي اغنية لجواد بعيد، ينشد فيها

الجواد الخفيف/يرسمك الأفق -لوحته- بالغبار/ بالغبار الخفيف/ بالغبار الذي يتطاحن وقت الأصيل/ الجواد الخفيف/ هاهو الآن يعدو/ ببرية عادرت شمسها الآن/ برية لم يساورها مداها ندى الليل/ لم تحترق بالأصيل/ ولكنها مثل قطن/ تماوج تحت الحوافر ـ لانسمع الوقع ـ/ او تحت رقص الجواد على الأفق/ وهو يخب بلا فارس/ دونما سرجه/ دون شمس تغيب/ ومن دون ليل يساور اعرافه/ او يحاور اطرفه/ او يباغت خصلة ذيل له/ راح ينشر تشيكلة الشعر تلمع من ذاتها/ الجو النحيف الشريد/ الجواد البعيد/ يرسم الأفق دون ضياء/ ودون ظلام.

شاعر يشبه قصيدته

ويمضى الشاعر فاضل السلطاني مستذكرا اهمية الشاعر مهدي الانسان التي يصعب ان يفصل بينهما فيه ويقول (في بداية السبعينيات وصلنا صوت مهدي من البصرة مع الاعداد الاولى من (طريق الشعب) ، صافيا ، نقيا ، بلا ادعاء، سألت عنه احد الاصدقاء ، الذي التقاه صدفة في البصرة ، فاجابني:
انه يشبه قصيدته.. صافيا ، ونقيا ، وتلقائيا مثلها! لم يتغير مهدي ، ولم تتغير قصيدته، سارا معا بخطى متوازية. لم يثقل مهدي الانسان فيه بامراض المنفى المعروفة، ولم ترهق قصيدته نفسها بلعبة التجريب، واستلهامات الحداثة وبعدها، ظل الاثنان نقيين بلا ادعاء ، وكان احدهما مكتف بالآخر.
ويضيف ظلت قصيدة مهدي غير متعالية على الواقع عبر اللغة او الموضوع .. ظلت لغته لغة الناس ومواضيعه المواضيع التي تشغل الناس البسطاء ، وقصيدته تستلهم المكان والتجربة المباشرة:الحديقة ، البيت ، النهر البستان.الخ ، لم يكن ذلك بسيطا في فترة سادت فيها اتجاهات شعرية كثيرة عربيا وعراقيا خصوصا في الستينيات بنزعاتها العبثية والوجودية والميتافيزيقية وما يمكن تسميته بالقصيدة الادونيسية بغرابتها ومنحاها الوجودي والصوفي لحد ما ، وكذلك لم ترجع قصيدة مهدي الى التاريخ عبر تكنيك القناع الذي ساد فترة او تذهب الى المستقبل مباشرة به على طريقة بعض قصائد (الواقعية الاشتراكية) ولم ينقل قصيدته بمفردات مجردة عن البروليتاريا والمرأة والعمال بل كتب عن عنهم عبر المشاهد اليومية كما في (قصيدة منزلية) وتناول فيها ربة البيت في عملها اليومي الممل الذي يحجب عنها شمس النهار، وعن الاطفال الذين تحجبهم الاسيجة عن الحياة نفسها.

حياة بائسة ولكن ملؤها العطاء

المهندس كريم السبع يقف عند الانطباعات الشخصية عن مهدي التي

تولدت اثر المعايشة عن قرب ولفترة ليست بالقصيرة مؤكدا ان معدن المرء ينجلي في الغربة والسفر فايقنت ان مهدي انسان نقي، دافىء ومسالم وواضح، لا يكره حتى من قد يسيء اليه، مستشهدا بمثل كانت والدته ترده فيقول (اسمع واطوي) ,لك عند سماعة اساءة من احدهم.
ويضيف(وجدت فيه النديم الممتع والمستمع الجيد، يمتلك ذاكرة قوية وصاحب البديهية الحاضرة والنكتة الذكية الدائمة، وكثيرا ما كان يتحفنا بتجلياته الشعرية فيكون الشعر سيد (الأمسية وخصوصا بالقائه الشيق.
واشار السبع انه كان صادقا في قناعاته وارائه ولا يعمل عكسها ابدا، لكن هذا الاصرار ثلم حياته بما عانى من بؤس ، وانعكس على اسرته، ولكنه لم يستطع بل لم يحاول ان يتصرف بغير قناعاته، وهذه لعمري حالة صدق نادرة بل مكلفة جدا، في زمن قد
اصبح الزيف فيها في المزاد العلني في جل الامور من المبادىء الانسانية الى الضمير الى الدين بل حتى الوطن!

وفي رسالة بالفيديو من هنغاريا وحرصا منه على المشاركة اكد الفنان ثامر الزيدي انه التقى الفقيد في عدن وبودابست ودمشق ثم في بنغازي وشاءت الظروف ان طلبت المؤسسة التي اعمل مني اخراج مسرحية (السيف الفضي) وكنت بحاجة الى سلامة اللغة العربية عند الممثل وضبط مخارج الحروف ، فأبدى الفقيد مهدي تقديم المساعدة ، ومن خلال العمل اكتشفنا ان العمل بحاجة من اجل التنويع الى بعض الاغاني لتضيف ابهارا اخر للعملت فتبرع مهدي ايضا في كتابة ثلاثة اغان ، تفاعل معها الجمهور ، وحصل العمل ك على جائزة أفضل عرض مسرحي.

انسان محكوم بعطاء الماء

ويرى القاص والروائي لؤي عبدالاله ان هناك تشابها في الاقدار ما بين المدن وبعض أبنائها، فالبقدر الذي تزدهر وبالقدر الذي تنتكس ينتكسون، كما تنطبق هذه الفرضية (اذا صحت) على مهدي محمد علي.
كانت سفرتي الى دمشق في صيف عام ١٩٩١، وفيها كان تعرفي بمهدي اكسيرا حقيقيا لعلاج هذا الحنين المرضي. لم تمض ساعات قليلة على تعارفنا حتى شعرنا وكأننا نعرف أحدنا الآخر منذ الطفولة. ما يميز مهدي عن سواه هو تشاهه مع مدينة البصرة في صفتها الاساس: الماء.
جاء كتاب (البصرة جنة البستان) لينقل هذا الارتباط الجذري بنبض

الماء الشمولي في مدينته حتى مع معرفته بأنها ظلت عبر التاريخ ومن وقت الى اخر تدمر ليعيدها الماء وآلهته الى الحياة ثانية.
ويؤكد لؤي ان مهدي ينتمي الى جيل من العراقيين شهدوا خلاله تنامي مدنهم خلال الخمسينات وبلوغها القمة في أواخر الستينات ثم البدء بالتدهور مع وصول البعث الى الحكم عام ١٩٦٨ مرورا بأطول حرب في التاريخ المعاصر ضد ايران ثم اعقبها من خراب ودمار.
وعلى العكس من هذا الجيل دفعت الاجيال اللاحقة الى المحرقة قبل ان تترك مدنهم المخربة أي بصمات عليهم، بل تحولت بشكل او بآخر الى كابوس ثقيل يستلزم الهرب منه الى الأبد.

, وشدد لؤي انه كم يجعلني أشعر بخيبة عميقة هو ان رحيل مهدي جاء بعد مرور ما يقرب من10 سنوات على سقوط النظام الفاشي السابق الذي كان يعادي كل المبدعين الاحرار مثله، لكنه كان موضع غضب وحنق ونقمة اعوان النظام، وكانت قوائم المبدعين وتهديدات عائلاتهم ممارسات متواصلة تدل على اهميتهم في المنفى. على الا قل كانت هناك مشاعر ما حتى لو كانت مبنية على الكراهية، اما ما ترتب بعد ذلك فهو تجاهل مطلق لهم، وغياب أي مشاعر تجاهم، فكأن مهدي وامثاله لا وجود لهم اساسا. ويتساءل بم تقاس عظمة اي وطن من دون مبدعيها،وهل ستكون اشعار مهدي وجنة بستانه نبراسا لاجيال قادرة على تحقيق حلمه باسترجاع يوتوبياه: جنة عادة التي لا تظهر الا كل اربعين سنة؟.

لو عرفنا الموت لم نخف منه

في رسالة موجعة تثير الشجون حقا، ارسلت ابنة الفقيد اطياف للمقهى الثقافي رسالة قدمتها الاعلامية والكتابة سلوى الجراح وجاء فيها (لم اشعر حتى الان بشيء من العذاب. اشياؤك لا تستثير في حزنا. واشعر

انني قادرة على التعامل مع أي شيء يخصك بارتياح. منذ موتك وأنا اتخذ عنك القرارات ببديهية وثقة وكأنك ترسلها الي من عندك اينما تكن. تنتابني متعة لذيذة حين اقلب صورك ، وصورنا معا. وحين اراك في المنام، اراك شابا، سعيدا ، واوشك ان اقع في غرامك. ورغم يقيني بأنك ميت، تأتيني في الحلم من عالمك بهدايا صغيرة وفواكه مجففة ومخللات، بل وتغيب عن نومي بطيب خاطر حين اطلب منك ذلك.

وتضيف (هل كان صحيحا ما قرأته في رواية المانية ان الناس (لو عرفوا ما هو الموت ، لما خافوا منه؟) وان كانت صحيحة تلك النبوءة فهل استطعت كما حصل للطفلة بطلة الرواية ان تقف داخل قلبك الخاص؟ وهل كنت - اصلا- تعيش خارجه؟.)

ولم ابكي عليك؟

الأنك فارقت الادوية، والحبوب، والمطهرات والمضادات الحيوية، و المرض الذي كان ينهش جسمك؟ أم لأنك لم تعد مضطرا للبقاء في البيت كان ذات مرة ، بيتا لأصدقاء احبة نزورهم فيه، واصبح الان ملجأ اضطراريا نتعثر فيه اقدامنا واغراضنا.
كيف اقول اني افتقدك وانا احملك معي كما تحمل بصرتك الان معك؟

وقدمت قصيدة الشاعر عبد الكريم كاصد متذكرا رحلة هروبه من العراق عبر الصحراء الى الكويت عام 1978 مع الفقيد

ذلك الخرج تذكره؟
لم يكن غير كسرة خبز
وبضعة اشياء
نحملها في الطريق أنلقيه؟ام اننا
حين اقبلت الناس
واكتظت السوق
قلنا: بضاعتنا هذه
هل ترد الينا؟

الناهض من البصرة وعاشقها

الكاتب والشاعر صلاح نيازي اكد ان مهدي (لم يلح شاعر من قبل على جغرافية بعينها كما الح مهدي محمد علي على مدينته البصرة. ربما كانت كتابه الوحيد يقرأه و يقرأه بشغف واستملاح، او نهره الوحيد الذي يبرر وجود كأناته. ربما لهذا السبب لم يشع شعره ولم يصبح ايقاعا متداولا. الشاعر الرائج يتخذ صيغة نهر جار يخصب جغرافيات

مختلفة وتمتليء حواصل الطيور وثمار الاشجار بمائه والا اصبح بيتية ذات نفع خاص.

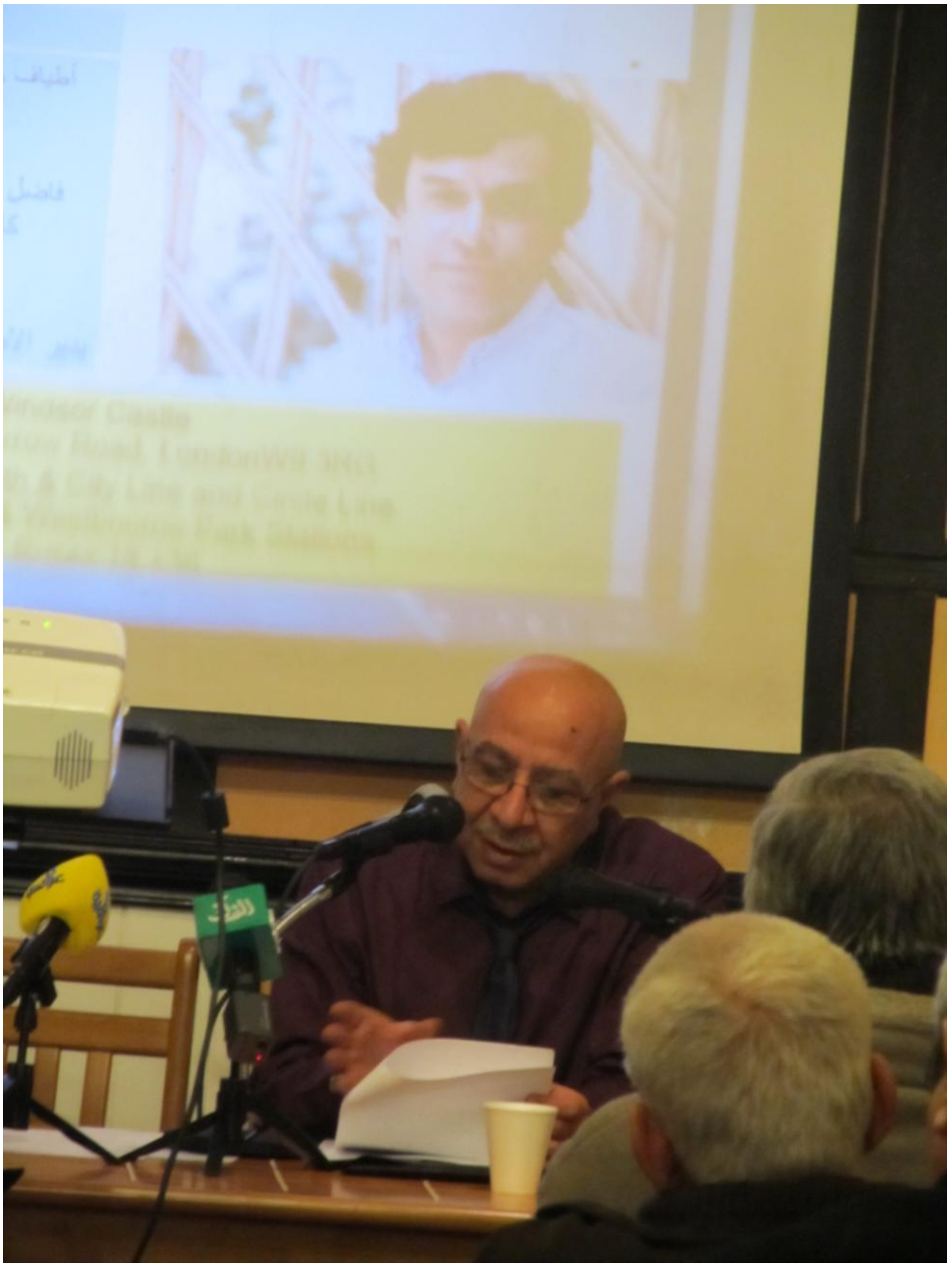

الغريب ان مهدي محمد علي لم يجعل مدينته في غربته طللا باليا مأهولا بالاشباح، كما في الشعر القديم ولم تنتزعه امواج الحنين وتقذفه في ماضيه وملاعب صباه ، كما فعل الكاظمي والجواهري والسياب. هؤلاء كانوا يعيشون جسدا بمكان وروحا بمكان آخر. لهذا السبب يتميز شعر الحنين بالمسافة الطويلة التي تفصل الشاعر عن الموضوع الذي يكتب عنه جغرافية البصرة التي عنى بها مهدي محمد علي كانت في داخله، لذا فهي خالية من الزمان والمكان وما من مسافة تفصل ما بينهما.

واشار الكاتب فيصل عبدالله في رسالته للمقهى الثقافي ان مهدي جندي نذر نفسه لقضية كبيرة اسمها العراق وثقافته الحرة والديمقراطية. قلب ظلت تؤشر بوصلته مكانا واحدا لاغير، وهو البصرة.

لكن وفاته ، وبالتحديد في هذا الوقت تعيد لنا السؤال مرة ثانية. لماذا فضل مهدي وغيره البقاء في المنفى؟ ويؤكد ان عطب مؤسساتنا الثقافية تحمل الجواب. والقائل لا مكان لمهدي، او غيره، وسط حفلات المصاهرة المذهبية والطائفية والعشائرية وسط مزوري التواريخ والسير والمواقف. وسط حاملي المباخر الجدد. لربما غابة (مقبرة الغرباء) ، حيث يرقد هناك الجواهري وهادي العلوي ومصطفى جمال الدين وسعود الناصري وغيرهم، ستكون اكثر رحمة من بلاد طاردة لابنائها النجب.

للغة لا تنهض بالحزن

واكد الفنان محمد سعيد الصكار في رسالته للمقهى (هذا ليس رثاء لمهدي محمد علي، بل رثاء للغة التي لا تنهض بحزنني. عندما قرأت في (المدى: مهدي محمد علي... وداعا) ، ذهلت وأصابني ما يشبه الخرس، وامتد ذهولي أياما لم استطع فيها حتى كتابة رثاء.
واليوم تريدونني ان أحكي عن مهدي. عماذا أحكي؟
عن الرسائل، عن القصائد الخاصة، عن الأخوانيات، عن رسوم طفلته (أطياف) التي كان يرسلها ألي، عن الصرة التي عمرت مشاعرنا بوجودها الى الحد الذي رحنا نحلم فيه بمشاريع حالمة لا تبعد عن الحقيقة. اقترحت عليه يوما ان نشترك في مشروع واسع يرسم للبصرة صورة حرة مختلفة الزوايا والألوان، بالوثيقة والتاريخ والأدب والطرفة والشخوص والرسوم والصور، الخ.. وقد بدأت ذلك قبله بمادة نشرتها (الثقافة الجديدة) 1997 - بعنوان (بنات أبي أسود الدؤلي)، تتناول لهجة البصريين، واختلافها عن لهجة ابناء بغداد، وانصرفت بعدها لتأليف كتاب عن شخصيات البصرة التي عرفتها (لم ينشر بعد)، لكنه لم يواكبني، بل باغتني بكتابه البديع (البصرة جنة البستان)، فأحسن وأجاد، وقد فرحت به واعددت له غلافه.

كان لقاؤنا الاول، بعد مراسلاتنا، في دمشق، في مهرجان (المدى)، ثم التقينا ثانية في مهرجان (اللومانيتيه) في باريس، وكنت مسرورا باحتفائه
بالنبيذ الفرنسي الذي يبدأ نهاره به، ويطلق لسانه بأطايب الكلام.
دفقة الذكريات لا تنتهي، ولا ينتهي حضور مهدي محمد علي في وجداني، فقد كنا على موجة واحدة يسند واحدنا حلم الآخر.(

ويذكر ان قدمت في الحفل مقاطع من سيمفونية بيتهوفن السابعة - الحركة الثانية وبعرض اوكسترالي على الشاشة الكبيرة ، بالاضافة الى صور ومشاهد عن حياة الشاعر وبصرته ومنفاه الاخير مع تعليق الاعلامي فلاح هاشم .كما قدمت العديد من قصائده - وقراءات في كتاب(البصرة جنة البستان) الصادر عام1998 عن دار المدى.